ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q2].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الرحلة وكتابة التاريخ
نحو قراءة جديدة للرحلة الأندلسية الموريسكية
رحلة أحمد بن قاسم أفوقاي نموذجًا



د. حميد الكتاني
دكتوراه في اللسانيات العربية
كلية اللغات والآداب والفنون
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

تعالج هذه الدراسة موضوع تاريخ المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ للميلاد، وتستند إلى نص تاريخي يُعَدّ مصدرًا مصادر كتابة تاريخ المسلمين بعد سقوط الأندلس، وهو رحلة أحمد بن قاسم الملق بأفوقاي المولود عام ١٥٧٠م، يقدّم هذا النص تاريخًا دقيقًا لحياة المسلمين في القرنين السادس عشر، ويصوّر معاناته مع الاضطهاد الذي تعرضوا إليه من حملات التنصير والتعذيب وإرغام على التخلي عن هويتهم العربية الإسلامية. وتُعَدّ رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب» مصدرًا تاريخيًا لإعادة قراءة تاريخ الأندلس المتأخر وكتابته من جديد استنادًا إلى نص أدبي يركز على تاريخ المهمشين الذين لم يحظوا باهتمام المؤرخين الرسميين. كما تتناول المقالة مناظرات أفوقاي والقضايا العقدية مثل التوحيد والتثليث التي حاجج بها كبار القدسين في أوروبا مستخدمًا أسلوب الحجاج للدفاع عن حقوق المسلمين الموريسكيين، مما يجعله صوتًا مهمًا للأقلية المضطهدة في الأندلس، حيث سعى للدفاع عن حقوقهم وحريتهم في ممارسة دينهم. إنّ تناول موضوعًا تاريخيًا بالاعتماد على نص أدبي رحلي هو نوع جديد من التنويع في مصادر إعادة كتابة تاريخ حقبة ما .

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	يونيو	٢٠٢٥
تاريخ قبـول النشـر:	٠٦	سبتمبر	٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

رحلة؛ أفوقاي؛ حجاج؛ تاريخ الأندلس؛ الموريسكيين

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.394202.1239

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حميد الكتاني, "الرحلة وكتابة التاريخ: نحو قراءة جديدة للرحلة الأندلسية الموريسكية, رحلة أحمد بن قاسم أفوقاي نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الثالث والسبعون؛ نوفمبر ٢٠٢٥. ص ٤٤ – ٥٥.

Corresponding author: ha.elkettani@gmail.com

X, formerly Twitter: http://X.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

تَسجّل الأسطغرافيا العربية والإسبانية أن الملكين الكاثوليكين «فيرناندو وإزابيلا» عندما تغلبا على مُلك بني الأحمر، واستوليا على غرناطة عام «١٤٩٢م-٨٩٧هـ»، فرضَا على المسلمين المنهزمين أحكاما قاسية، تمثلت أساسًا في القرارات التي ألغتْ كل ما تمّ الاتفاق عليه في وثيقة التسليم؛ إذْ نكثا العهود التي قطعاها في الوثيقة الموقعة، وضيَّقَا على المسلمين بصنوف التعذيب والاعتداء، حتى أصبحت الهجرة مصيرًا محتومًا، وليست خيارًا كما كانت قبل السقوط، فبدأ الوجود الإسلامي في ينحسر شيئًا فشيئًا إلى أن صارَ المسلمون أقليّةً وسط أغلبية إسبانية مسيحية ونصرانية.

لقد كانت الهجرة على صعوبتها وقساوتها، غير ممكنة لجميع مسلمي غرناطة، خاصةً الفقراء منهم الذي اضطروا إلى البقاء في الأندلس والتظاهر بالنصرانية والتخفي، إثر صدور قرار تنصير المسلمين بداية من سنة ١٤٤٩م على يد مطران طُليطلة «خمينيس دي سيسنيروس» لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة عُرفت بمرحلة محاكم التفتيش Inquisition، هذه المرحلة التي ذاق فيها المسلمون الذين أبوا مُفارقة ديارهم كل أنواع التعذيب والتنكيل التي صوّرتها مصادر تاريخية إسلامية عربية وإسبانية. ولما يئست الكنيسة والدولة في إسبانيا من تنصير المسلمين وطمس حقهم في العيش بهويتهم أصدرت قرارًا بطردهم نهائيا سنة ١٦٠٩م. وبعد الطرد النهائي بدأت مرحلة تاريخية أخرى عُرفت بمرحلة التهجير القسري التي ذهب ضحية لها الأطفال والشيوخ والنساء والحوامل وأُتلفتْ أموالٌ وصودرت أملاك(١)، بل وأحرقت كتب علمية ودينية وتاريخية قدّرها المؤرخ «فرانسيسكو» بمليون وخمسمائة كتاب في تخصصات مختلفة(٢).

في هذا السياق التاريخي المشحون بالصراعات العقدية والسياسية والعسكرية وُلدَ الرّحّالة أحمد بن قاسم الحجري المُلقب بأفوقاي، وهو آخر الأندلسيين الموريسكيين(٣) الذين ألفوا بالعربية(٤). فمن يكون أحمد أفوقاي؟ وما هي رحلته؟ وما علاقتها بتاريخ الجرح الإسلامي القديم؟

أولاً: رحلة أفوقاي الحجري (التعريف والسياق التاريخي)

١/١-صاحب الرحلة

هو أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الاندلسي، عُرِفَ بلقب الشهاب عند المغاربة نسبة إلى مختصر رحلته «الشهاب إلى لقاء الأحباب» ولد عام «٩٧٧هـ-١٥٧٠م» بقرية الحجر الأحمر بريف غرناطة، نشأ في بيئة يغلب عليها الصراع العقدي، فأخفى إسلامه كما كان يفعل مسلمو الأندلس، ويُظهر النصرانية، تعلمَ القشتالية وآدابها فأتقنها إتقانا عجيبا جعله من الماهرين فيها. أما علوم القرآن والشريعة والعربية فقد تعلّمها سرًّا في بيت أهله، الذي عُرف عليه بيت فقه وعلم ودين(٥). ورغم حرصه على إخفاء هويته الإسلامية كُشف أمرهُ ذات يوم عندما اكتشف أسقف غرناطة «جان ميندينيث دي سالفاتيرا» أنه يُحسن القراءة بالعربية، ويرجع ذلك إلى أنه كان يحضر مجالس علمية يعقدها الأسقف نفسه لترجمة نصوص عربية وُجدتْ يوم «١٩ ربيع الثاني عام٩٩٦هـ-مرس ١٥٨٨م» في أسفل جدار صومعة الجامع الكبير التي أمر الأسقف بهدمها.

إن «المرء مخبوء تحت لسانه»، كان لسان أفوقاي الحجري عربيًا، فكُشِفَ أمرُهُ وأصبح مترجمًا لدى أسقف إسباني كلما استشكل عليه لفظ عربي في تلك المخطوطات التي تركها المسلمون وراءهم. كان أفوقاي يرغب في الهجرة من الأندلس منذ صغره، فكان يتحيّن الفرصة التي تسمح له بالهجرة والاستقرار ببلد إسلامي هروبا من الاضطهاد الذي يعيشه المسلمون منذ سقوط غرناطة، وقد استطاع الهجرة على متن سفينة محمّلة بالقمح كانت متوجّهة من ميناء «سانتا مرية Santa Maria» إلى ميناء مدينة البريجة المغربية التي تسمى اليوم «الجديدة» والتي كانت مُستعمرة برتغالية وقتئذ، وقد كانت هجرته سنة «١٥٩٩م». انقطعت أخباره عندما كان في تونس يوم ٢٠ رجب عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م ولم تعرف سنة وفاته.

٢/١ -رحلة أفوقاي (جدل المخطوط والنسخ)

تعدُّ رحلة أفوقاي الحجري المسّماة «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» أهمّ مصدر تاريخي أندلسي كُتب بعد صدور قرار طرد المسلمين الذين آثروا البقاء في الأندلس رغم التعذيب والتنكيل، فؤلفها يتحدث فيها عن رحلته الطويلة من الأندلس إلى مراكش، ومن مراكش إلى عواصم أوروبا الغربية، ويتكلم فيها وهو بمنأى عن محاكم التفتيش، يُناظر المسيحيين في عقر دارهم بفرنسا وهولندا، ويُحاججهم دفاعا عن عقيدة المسلمين الموريسكيين الذي عرّضتهم إسبانيا للتنصير كرها وغصبا لحريتهم الدينية.

غير أن رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب» مفقودة اليوم، وما يوجد هو مختصرها المسمّى «ناصر الدين على القوم الكافرين» وقدْ طُبعَ وحُقّقَ بعنوانين مختلفين[٦] لمحتوى واحد، غير أن تحقيق محمد رزوق أدق وأشمل من الناحية العلمية، وهو المعتمد في هذه الدّراسة، وإليه نشير في الهوامش. يقول متحدّثا عن رحلته المفقودة التي ألفها بمصر: «وطلب مني غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفا بذلك، ولم يتفق العمل إلى أن أمرني شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه الشيخ علي بن محمد الأجهوري المالكي، وجعلتُ التأليف رحلة سميتها برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»[٧] وقد ذكر فيها تاريخ الاندلس من الفتح إلى السقوط. أما المختصر الذي بين أيدينا، فيقول فيهك «وها أنا ذا أشرع بعون الله أكتب هذه الورقات ما وقع لي من مناظرات وكل مسألة ألهمني الله تعالى بالجواب عليها في الحين على البديهة، وأذكر نصوصها أيضًا ما وقع لي مع علماء اليهود بالبلاد المذكورة، وقد سميت الكتاب بناصر الدين على القوم الكافرين»[٨].

يتضح من خلال هذا القول، أن كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، ليس سوى مختصر لكتاب الرحلة المفقود، لأن نسخة مخطوط هذا الكتاب التي توجد في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٧٠٢٤ Arab، خالية من العنوان واسم الناسخ وتاريخ النسخ، غير أنها تشير إلى العالم المصري الشيخ علي الأجهوري في اللوحة ٥٩ منها. وفي هذه النسخة، هناك نسخة كُتبت قبلها بتونس سنة ١٠٥١هـ-١٦٤١، وهي بخط المؤلف، كما يرى المحقق محمد رزوق، وتوجد بالقاهرة رقم ١٦٣٤، وهي بخط مغربي[٩]. ومهما يكن من اختلاف عنوان النسختين، فإن محتواهما واحد، مع اختلافات يسيرة في ترتيب الأبواب والفصول، إلى الملاحق التي أضافها المحمد محمد رزوق في آخر الرحلة.

٣/١-مسار الرّحّالة ومحطات الرّحلة

وصلَ أفوقاي إلى المغرب بعد هروبه من البريجة «الجديدة» إلى آزمور سنة ١٠٠٧هـ-١٥٩٩م، ثم قام بعد ذلك بسفارته عن السلطان زيدان السعدي بين ١٠٢٠هـ-١٦١١م/١٠٢٢هـ-١٦١٣م. عبر الرّحالة أفوقاي في رحلته من محطات كثيرقن بدأها من غرناطة، ثم إشبيلية، فسنتا مارية Santa Maria، ثم البريجة «الجديدة المغربية اليوم» وبعدها أزمور ومراكش وآسفي. وفي مساره إلى أوروبا في سفارته عبر آسفي إلى مرسى هبردي غرسي، ثم إلى باريس، ومنها إلى بوردو، ثم عاد إلى باريس، ثم بوردو من جديد، ومنها ذهب إلى طلوشة «تولوز اليوم» ومنها إلى روان، فمرسى هبردي غرسي، ومنه إلى هولندا، التي زار فيها أمستردام، ومدينة ليدا Leyde ومدينة لَهَايْ. ويظهر من خلال رحلته أنه لم يحدد مسار عودته، ولكنه يشير إلى أنه توقف بتونس بعد عودته من الحج، عام «١٠٥١هـ-١٦٤١م» وفيها كتب مختصره لرحلته الطويلة.

ثانيًا: أفوقاي الرّحالة والمؤرخ (من التأريخ إلى الحجاج)

تؤرخ رحلة أفوقاي الحجري لمنعطف حاسم ودقيق في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية في الغرب الإسلامي «المغرب والأندلس»؛ حيث يلاحظ قرائها أن المؤلف تتجاذبه رغبتان، تتمثلُ الأولى في حديثه عن تاريخ المغرب والأندلس، حيث يصف أوضاعهما كلما سنحت له الفرصة. وتتجلى الثانية في دفاعه المستميت عن عقيدة المسلمين من خلال المناظرات التي جمعته بالمسيحيين في العواصم الأوروبية.

واستجابةً لهاتين الرغبتين، أنتج أفوقاي رحلته التي بقدر تؤرّخ لشخصه المفرد. تنعكسُ على صفحاتها هوية الأمة الماثلة في شخصيته المسلمة. ولا جرم أن يصير أفوقاي برحلته هذه مصدر إلهام لكثير من الكتابات الأدبية والفكرية المعاصرة، منها رواية «الموريسكي»(١٠) التي استلهمت الأحداث التاريخية الكبرى التي تشير إليها رحلة أفوقاي لبناء تخييلها الروائي التاريخي.

إن أفوقاي في رحلته يقف مُرخا ومُناقشا ومُحلّلا للأوضاع المضطربة في بلاد الأندلس والمغرب، ويقف مُحاجِجًا غير من المسيحيين والنصارى للدفاع عن عقيدة الموريسكيين المُهجرين قسرا من وطنهم، ما يجعلنا أمام نص رحلي متلفّع بعباءة التاريخ والحجاج، فتارة يرخي الرّحالة العنان لقلمه لفعل التأريخ، وتارة يشيحُ عن التأريخ ويشرع في مُحاججة غير المسلمين «احتجت أقرأ الإنجيل الذي بأيديهم الآن، منه ومن غيره من كتبهم وجدت ما نردّ عليهم، ونبطل حُججهم، ونصرني الله عليهم مرات عديدة»(١١). وتارة أخرى، يجمع بينهما في آنٍ واحد.

ولعلَّ هذا التوارد بين التأريخي والحجاجي راجع على سببين، يرتبط الأول بفترة كتابة رحلته؛ حيث كتبها بعد أداء رحلته السفارية بسنوات، ما يجعل ذاكرته مُتداعية بتعلّة النسيان، فكان أفوقاي يملأ فجوات رحلته بتأريخ الأحداث اليت وقعت في إسبانيا بعد سقوط غرناطة. أما السبب الثاني، فيرجع إلى مهمة أفوقاي في رحلته إلى العواصم الأوروبية الكبرى، والمتمثلة في الدفاع عن قضية أقلية الموريسكيين المهجرين والمضطهدين، والتعريف بأحقية الشعب الموريسكي في العيش بسلام مع احترام عقيدتهم الإسلامية، التي لطالما كانت عقيدة منفتحة تؤمن بالحوار والتسامح طيلة القرون التي حكمت فيها بلاد الأندلس، وأنتج فيها العرب حضارة باذخة لا تزال أنقاضها شاهدة على نتاج حضاري معرفي إسلامي خالص.

إن العمل الذي قام به الرّحالة أفوقاي، أشبه أن يكون مرافعة دولية قام من خلالها الرحالة ب «تدويل Internationlization» لموضوع الأقلية الموريسكية المسلمة: «بل نمشي إلى فلنضس، لأنهم لا يضرون المسلمين، بل يحسنون إليهم»(١٢). انطلاقا من هذا الملمح التأريخي والحجاجي العام للرحلة، نتساءل ما الدلو الذي سعى إليه مختصر رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب» في المستويين الرحلي والتاريخي؟ وكيف يمكن اعتبار الرحلة فعلاً تأريخيًا، وفعلاً حجاجيًا عن قضية تاريخية لا تزال ماثلة في عصرنا الحاضر؟

١/٢-أفوقاي مُؤرِّخًا للجرح العربي الإسلامي القديم

يقوم فعل الحكي الرحلي عند أفوقاي، على ثنائية متوازية، فهو من جهة أولى يسرد وقائع رحلته، ومن جهة ثانية يعرض عن السرد ويشرع في فعل التأريخ؛ خاصة عندما يدعوه السياق الرحلي للحديث عن محنة الموريسكيين، ولعل إصرار الرّحالة على الميل إلى فعل التأريخ يرجع إلى المحنة التي مرّبها باعتباره واحدا من الموريسكيين؛ فالرّحالة عاين وعاشَ لحظة الاضطهاد في عقر داره بالأندلس، وبالتالي فإن حضوره في رحلته، ليس حضورا عابرًا، فحسب، بل حضورا شاهدًا؛ فهو مؤرخ وشاهدٌ عاين حدث التعذيب والتنكيل عن قرب، وذاق ويلاته، وحاصرته الخطوب، وأحاقت به الفجوع، مثله مثل باقي المسلمين الذين اختاروا البقاء في المملكة الإسبانية المسيحية، يقوب في هذا السياق: «قال لي القسيس: بأي مدينة تسمى بالعربية مدينة البحر؟ قلت: لا أدري، لكن يظهر لي أنها البندقية لأنها في البحر مبنية، فأعطاني كتاب الجغرافيا بالعربية وهو من الكتب التي تعمل النصارى بالقالب المسمى: المشتاق في اختراق الآفاق(١٣)، وقال: انظر هل تجد هذا الاسم فيه؟ فقرأته كله فلم أجده، وبينما كنتُ أطالعُ، إذ جاء بعض المُسافرين من بلادي إلى مدينة غرناطة، وعلمتُ في أي موضع من الفنادق كانوا، فمشيتُ إليهم والكتاب عندي، وبعد السلام والكلام فتحت الكتاب، فلما رأوه مكتوبا بالعربية دخلهم الخوف العظيم من النصارى، وقلت لهم لا تخافوا لأن النصارى يكرمونني ويعظمونني على القراءة بالعربية. وكان أهل بلدي جميعا يظنون أن الحرّاقين(١٤) من النصارى الذين كانوا يحكمون ويُحرّقون كل من عليه شيء من الإسلام يخافُ بعضهم من بعض، ولا يتكلمون في أمور الدين إلا مع من كان ذمّة، معناه: ذو آمنه. وكثيرٌ منهم كانوا يخافون بعضهم من بعض، وكان فيهم من

يحبّ يتعلم شيئا من دين الله، ولا يجدون من يعلّمهم. ولما كنت عازما على الانتقال من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين كنتُ أعلم جميع من أراد يتعلّم من الأندلس في بلدي وغيرها من البلاد التي دخلتها. ولمّا رأى الأندلسُ[١٥] الحالة التي كنتُ عليها، كانوا يقولون فيما بينهم: لا بد لهذا من الوقوع في أي الحرّاقين. وبلغ الحال بي حتى وقفتُ مع جماعة للكلام، نرى كل واحد منهم ينسلُّ حتى أبقى وحدي منفردًا»[١٦].

تنفجر من هذا المقطع التوثيقي للوضع الذي كان يعيشه مسلمو غرناطة، بعد صدور قرار التنصير سنة ١٤٩٩م، كلَّ معاني العذاب النفسي، والقهر الجسدي، والعيش المتشظي بين هويتين؛ هوية إسلامية مخفية، وهوية نصرانية مُعلنة تظاهُرًا، كما تكشف العبارات التوثيقية التي يوظفها الرّحالة أن الخوف كان منتشرًا حتى بين المسلمين أنفسهم، للدرجة التي تنعدم فيها الثقة بين المرء وأخيه في الدين والدم والعرق.

إنّ تركيز الرّحالة أفوقاي على تسجيل حجم الجرح الذي تعرّضَ المسلمون جراء قرار التنصير وما تبعه من ممارسات تفتيشية عن النوايا وعن المعتقد، ينمُّ عن وعي تأريخي، ويصدر عن خلفية تأريخية تراهن على تسجيل واقع المسلمين الموريسكيين نفسيا واجتماعيا، الذين أصبحوا يشكلون أقلية لا يكترث لها المؤرخ الرّسمي، بل المؤرّخ الإسباني المحكوم بسلطة الكنيسة ذات النفوذ الواسع في تلك الفترة. إذا نظرنا إلى الفئة التي يتحدّث عنها الرّحالة، نجدها فئة المسلمين الذين آثروا البقاء بعد سقوط غرناطة، وهي الفئة الأقلية التي تحتاج إلى تأريخ وضعها الديني والاجتماعي والنفسي، وهذا ما انتبه إليه الرّحالة فعمدَ إلى تسجيله وتدوينه في هذا المختصر من رحلته. فماذا لو وصلتنا الرحلة كاملة؟ ![١٧]

يتعزّز هذا الطّرح كلما أمعنّا النظر في الأحداث التاريخية الكبرى التي يؤرّخ لها الرّحالة بوعي مُغاير لما كُتبَ عن هذا الجرح الذي لم تتناساه الذاكرة العربية الإسلامية مهما امتدت وباعدت بينهما القرون، فالكاتب هنا مُؤرّخ شاهدٌ، وضحية في الآن نفسه، لذلك فهو يقبض على الحدث لحظة وقوعه، ويعقل جميع الظروف والملابسات التي تحيط به، ما يدفعنا إلى القول بأن كتابات الرّحالة هنا تمثل نموذج «الكتابات المُؤرِّخة والمُؤَرّخَة»[١٨] بتعبير عبد الله العروي.

من بين الأحداث التاريخية الكبرى التي يقدّم لها الرّحالة أفوقاي تفسيرا مختلفا عمّا كتبه مؤرخو الكنيسة في تلك الفترة، نجد حدث طرد المسلمين سنة ١٦٠٩م[١٩]، وهو الحدث الذي فسرهُ أغلب المؤرخين تفسيرا دينيا؛ فالمؤرّخ «مانويل دانيلا ١٦٠٩-١٨٣٠م» فسّرَ قرار الطرد بعد انسجام المسلمين دينيا مع المجتمع الإسباني، يقول: «الوحدة الدينية كانت تلوح في سماء إسبانيا متألقة مُشرقة، ويا سعد ذلك البلد الذي يكون متحدا في مشاعره الكبرى»[٢٠] وهو التفسير نفسه الذي ذهب إليه المؤرخ «فلورينسو جانييه ١٨٧٧م-١٨٣١م» الذي رأى في وجود المسلمين بإسبانيا «حضارة شرقية تفتقر إلى الأفكار والمقومات الأساسية للحضارة الحديثة» [٢١] أما المؤرخ «هورتز» فقد ظل تفسيره غامضا، إذْ يقول: «على الرغم من وجود كثير من الوثائق الثابتة لدينا، فإن الأسباب الحقيقية التي جعلت الملك يميل في النهاية لهذا الحل المفجع لا تزال غير واضحة، وبرما لن تتضح أبدا، لأنه يجب البحث عنها في أحاديث الملك مع الأشخاص المقربين له جدا، ومثل هذه الأحاديث لا تترك أثرًا ويصعب معرفتها»[٢٢].

إذا كان قرار طرد المسلمين قد تم تفسيره تفسيرا دينيا، وتم تسويغه تسويغا دينيا من قبل القضاء الإسباني في مناسبات كثيرة [٢٣] فإن الرّحّالة أفوقاي يلفت نظر قراء رحلته إلى تفسير آخر، يتمثل في النمو السكاني السريع لمسلمي الأندلس، فيشير في رحلته إلى أن المسلمين تم إحصاؤهم مرّتين، الأولى في عهد الملك فيلب الثاني ١٥٢٧-١٥٩٨م، والثانية في عهد الملك فيلب الثالث «١٥٧٨-١٦٢١م»، يقول الرّحّالة: «وهذا فيلب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يُزمّموا [٢٤] جميع الأندلس صغارا وكبارا، حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل، ولا علم أحد السر في ذلك. ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زِمامًا آخر مثل الأول كما أعلموني بمراكش، ولك يدرِ أحدٌ السرّ في ذلك حقيقة. ولكن قال لسان الحال أنهم أرادوا أن يعلموا هل كانوا في زيادة أم لا؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب ذلك بإخراجهم. وكتب الملك فيلب الثالث كتابا لقريبه

وخليفته بمدينة بلنسية يأمرهُ أن يشرعَ في إخراج الأندلس»[٢٥].

تستوقفنا في المقطع أعلاه من رحلة أفوقاي، عدة ملاحظات تؤكد الطرح النظري الذي صُغناه في الجانب النظري لهذه الدراسة، والمتمثل في وعي الرّحّالة بفعل التأريخ، من خلال توسّله بعدّة وسائل، أهمها أسلوب المقارنة؛ فالرّحّالة يخبر عن عملية إحصاء مسلمي الأندلس في عهدين «فيلب الثاني وفيلب الثالث» وهذا بقدر ما يشير إلى أن مخطط تهجير المسلمين قد بدأ على عهد فيلب الثاني، بقدر ما يبيّن وعي الرّحّالة بمقاصد القرارات التي كانت تتخذ في الأندلس ولا «يعلم أحد حقيقتها»، لكن الرّحّالة يعلمها لأنه يتأمل الواقع ويعلم ما يقوله «لسان الحال» بتعبيره.

فإذا كان عدد المسلمين في زيادة، فهذا يعني أن مخطّط التنصير، ومشروع التذويب الثقافي والحضاري للمسلمين في الحضارة الغربية، سيتبعه مزيد من الإخفاق، لأن زيادة عدد المسلمين تعني زيادة في رسوخ الثقافة العربية الإسلامية، ولهذا فعبارة «ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب إخراجهم» التي اختتم بها الرّحالة قوله تعكس ذلك المخطط، وتعكس وعي المؤرخ به أيضًا. ويشير المؤرخ المغرب «عبد الوهاب بن منصور» إلى سبب لا يقل أهمية عما ذكره الرّحالة، ولعله استنتجه منه، ويتمثل في كون كثير من سكان إسبان النصارى كانوا رهبانا وقساوسة في الكنائس، وكانوا لا يتزوجون[٢٦]، وهذا ينعكس سلبًا على النمو الديمغرافي للإسبان، في مقابل الزيادة في السكان الأندلسيين المسلمين.

لا يكتفي الرّحالة بهذا، فيورد ترجمة للنص-الكتاب الذي وجهه الملك فيلب الثالث إلى حاكم بلنسية «مرقش دي غرسينا Marques de Carazena يأمره فيه بطرد المسلمين» ذلك الكتاب الذي «يتضمن موقفا حضاريا خاليا من حس الفضيلة ومتجرّدا من قيم الدين»[٢٧] بعبارة المؤرخ الإسباني «فيرمين ميورغا» مناصر القضية الموريسكية.

يشير الملك فيلب الثالث في كتابه ذاك إلى مجموعة من المبررات التي دفعته إلى اتخاذ قرار الطرد، وهي مُبررات لا تقل أهمية عن التبريرين الديني والسكاني، فيذكر الملك المحاولات الفاشلة لتنصير المسلمين، ويزيد على ذلك التسويغ السياسي، يقول الملك كما جاء في نص الترجمة في رحلة أفوقاي: «...ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا، لأنه لم يجد فيهم واحد نصراني حقيقة. والضرر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعامينا عليهم، قد ذكره إلينا رجال صُلحاء، وأفتوا يفهم بأنه يجوز لنا من غير شك أن نعاقبهم في أنفسهم وأموالهم، لأن الاستمرار على سوء أفعالهم ختم وحكم عليهم أنهم منافقون، وهب أننا قادرون على أن نجزيهم ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم ولومتهم. فمع ذلك اخترت معاملتهم على طرق الحلم واللين وترك المؤاخذة (...) ونحن في هذا تحققنا وصحّ من وجوه أنهم بعثوا للتركي الكبير بإصطنبول، ومولاي زيدان بمراكش رُسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم، وأيضًا بعثوا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا أن يعينوهم بسفنهم. وأما سلطان إصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس لأنه كان يشغله. وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها (...) وللقيام بما لزمنا لحفظ مملكتنا أمرنا بإخراج جميع الأندلس الذين هم في تلك السلطنة (بلنسية)»[٢٨].

يُستفاد من خلال هذا النص الذي أورده الرّحالة مُترجما، عدة حقائق تاريخية، منها: الاتصال الروحي بين مسلمي الأندلس وباقي المسلمين في المغرب الأقصى وفي المشرق العربي، أيام الحكم العثماني، فقد كانوا يأملون المساعدة منهم من خلال الدعم العسكري والسياسي الذي طلبوه من سلطان الترك، ومن سلطان مراكش. وهذا الاتصال الروحي والسياسي اعتبره الملك تسويغا يجيز له طردهم إلى خارج مملكة إسبانية. وهذه الحقيقة التاريخية التي أوردها الرّحالة أفوقاي، أشار إليها المؤرخ الإسباني «هورتز» الذي يقول: «أما في بلنسية فإن إمكانية نزول الأسطول العثماني لم يكن محتملا، بل كان قائما، حيث كان يكفي إنزال كميات من السلاح حتى تتحول المنطقة إلى بؤرة مقاومة مزعجة في حالة غزو أجنبي، فالموريسكيون لا يستطيعون شيئا بأنفسهم، وأما عندما تتم مساعدتهم من الخارج فيمكن حينذاك أن يتحولوا إلى خطر حقيقي»[٢٩]. هذا من جانب اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية، أما عن

اتصالهم بالدولة السعدية، فقد ذكر المؤرخ «مرثيديس غارثيا أرينال» أن مسلمي بلنسية أوفدوا رسولاً إلى السلطان زيدان يلتمسون منه الدعم السياسي والعسكري[٣٠]؛ ولكن الأطماع التركية في بلاد المغرب حالت دون تقديم تلك المساعدة[٣١].

إنّ التواشج الرحلي والتاريخي يبدو واضحًا من خلال إصرار الرّحّالة أفوقاي على إيراد وترجمة قرار طرد المسلمين، وتضمينه في نص رحلته، وهذا التواشج بين الرحلي والتاريخي يعكسُ توارد فِعلَين في بنية الرحلة، فعل حكي الرّحلة، وفعل تأريخ موضوع الرّحلة؛ ذلك أن الرّحالة أورد هذا الكتاب مترجمًا في الباب الحادي عشر من رحلته، وهو الباب الذي يتحدث في عن ما وقع له في بلاد فلنضس «هولندا حاليًا»؛ حيث عمدَ إلى ذكر قرار الطرد بوعي منه في المهمة السفارية التي يقوم بها، والمتمثلة في التعريف بالقضية الموريسكية في العواصم الأوروبية، والعمل على تدويلها، يقول في هذا السياق: «ويطول الكلام على ما رأينا في فلنضس، ذكرنا شيئا في الرحلة [٣٢] وأما ما ذكرته في هذا الباب مما جوبتُ به للأمير في شأن الأسباب التي حملت لسلطان النصارى على الأندلس من بلاده فنذكر هنا شيئًا»[٣٣].

يتضحُ إذن، من خلال قول الرّحّالة، أن إيراده لقرار الطرد مُترجما، ما هو في الحقيقة إلا دليل على رغبة الرّحّالة لإبراز حجم الإشكال الحضاري الذي يثوي خلف قرار الطرد، الذي شكل مأساة الشعب المسلم؛ فالمسلمون الأندلسيون لم يبد استعدادهم للذوبان في المجتمع الإسباني الجديد، بل ظلوا متمسكين بعاداتهم وعقائدهم، ورفضوا الاندماج الديني والسياسي، وبتعبير المؤرخ هورتز «من الصعب على تلك الأقلية أن تشعر بالولاء لملك يرعى الجهاز القمعي كلّهُ»[٣٤]. لقد أصرّ الرّحالة على إيراد قرار الطرد بكامله تفاصيله، باعتباره وثيقة تاريخية تتضمن قرارًا سياسيًا يعكس محنة شعب الأندلس المسلم إمعانا منه في إبراز فاجعة طرده.

يقول الرّحالة معلقًا على قرار الطرد: «وبعد أن خرجوا أهل سلطنة بلنسية، فأمر بالخروج للذين كانوا بالأندلسية، وغيرها من البلاد القريبة إليها أن يخرجوا. وبعد أن اكتروا السفن وهم في وادي إشبيلية بعث السلطان أمرًا عكس الأول، وقال: إن كل من اكترى سفينة ليمشي لبلاد المسلمين أن يخذوا لهم كل من كان أقل من سبع سنين من الأولاد والبنات، وأخرجوا كل من كان في عشرين سفينة، وأخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف من الأولاد، وكل من جاز على طنجة وسبتة، أخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين»[٣٥].

يأتي هذا التعليق بعد أن انتهى أفوقاي من إيراد قرار الطرد، فما الغاية من هذا التعليق إذن؟! للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعود قليلا إلى خطاب الملك فيلب الثالث، ذلك الخطاب حاول فيه الملك أن يقلب الحقائق عن طريق مغالطات منطقية، ففي الخطاب يقول الملك «وهب أننا قادرون على أن نجزيهم ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم ولومتهم. فمع ذلك اخترت معاملتهم على طرق الحلم واللين، وترك المؤاخذة»[٣٦]. فبين هذا الادعاء بمعاملة المسلمين معاملة حسنة، وبين قرار الإجلاء القسري والاعتداء «وإن كل من يوجد بعد ثلاثة أيام التي ينادى فيها بالأمر خارجًا عن بلده، يجوز كل من لقيه أن ينهبَ ما عندهُ ويُسلّمه للحكام، وإن امتنع يجوز له قتله»[٣٧].

بين هذين التصريحين تناقض صارخ، ومغالطة مقصودة، لإضفاء نوع من المصداقية على منطقية قرار الطرد، ولهذا لم يجد الرّحّالة أفوقاي بدّا من التعليق على ادعاء الملك حسن معاملة المسلمين، وبيان بطلان ادّعائه.

نستطيع أن نقول بعد هذا العرض الموجز لتواشج الرحلي والتاريخي في مختصر رحلة الشهاب، أن الرّحّالة أفوقاي الحجري لم يكتفِ بسرد وقائع رحلته من مراكش إلى هولندا، بل طعّمها بنصوص ذات صبغة تأريخية تتكامل وتنسجم مع موضوع رحلته السفارية. فهل كان الرّحّالة أفوقاي يقصد من وراء هذا الفعل أن يكون رحّالة مؤرّخا مُقْنِعا ومُحاجِجًا عن الفترة التاريخية التي يعيشها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المحور الآتي.

٢/٢-الرّحّالة أفوقاي (تأريخ الاحتجاج بالحجاج)

يلاحظ قارئ رحلة أفوقاي أنه مولعُ ولعًا شديدًا بمناظرة النصارى في عقيدتهم، والردّ عليهم، خاصةً ردوده على تلك الاتهامات التي وجهوها للمسلمين في

الأندلس، والتي كانت سببًا من أسباب اضطهادهم منذ سقوط غرناطة ١٤٩٢م، ولهذا حمل الرّحالة على عاتقه مهمة الدفاع عن حقوق هذه الأقلية المضطهدة من خلال مُحاججة النصارى، ودحض حججهم وردّها عليهم. وقد كان الرّحالة يعي حجم المسؤولية التاريخية التي يحملها ولهذا فقد كان شديد الاطلاع على كتب عقائد النصارى واليهود، إذ يقول: «اعلموا أني ترجمان سلطان مراكش، ومن بتلك الدرجة يحتاج يقرأ في العلوم وكتب المسلمين وكتب النصارى، ليعرف ما يقول وما يترجم بحضرة السلطان»[٣٨].

انطلاقًا من الخاصية الحجاجية التي اتسمت بها الرّحلة، والتي جعلتها تأخذ طابعًا حضاريًا خاصًا، فهي من جهة أولى، تتضمن آراء ومواقف الرحّالة، بصفته مثقفًا ومترجمًا وسفيرًا، يقوم بالدفاع عن هويته الإسلامية الفردية والجماعية، تلك الهوية التي حُجبتْ عنه وعن مسلمي الأندلس ردحًا من الزمن، بسبب سياسة الإقصاء الديني واللغوي الذي تعرضَ له بصفته فردًا من جماعته المسلمة. وفي مقابل ذلك الإقصاء، هناك إرغام على هوية بديلة، هوية مسيحية، ولغة قشتالية، لكنه يتشبث بلغته سرًّان ويُجابه الآخرين بالعلم والمعرفة، ومقارعة الحجة بالحجة. ومن جهة ثانية، تعكسُ الرّحلة فعلا «احتجاجيا Protest» على المجتمع الدولي آنذاك، فنراه يعمل على تدويل قضية اضطهاد المسلمين الأندلسيين من خلال مهمته السفارية، فرحلته في الأصل قامت من أجل هدف مقصود هو تخليص ما نُهبَ من بعض أهل الاندلس على يد البحارة الفرنسيين في طريق هجرتهم من إسبانيا «وكان الأندلس يقطعون البحر في سف النصارى بالكراء، ودخل كثير منهم في سفن الفرنج، ونهبوهم في البحر، وجاء إلى مراكش أندلس «موريسكيون» منهوبون من الفرنج من أربع سفن. وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة بطلب منهم وكالة ليطلب الشرع عنهم ببلاد الفرنج»[٣٩]. وقد وقع الاختيار على أحمد أفوقاي الحجري ليكون على رأس هذه المجموعة إلى فرنسا لاستخلاص أموال المسلمين المنهوبة من قبل القراصنة الفرنسيين، حاملا معه كتابًا ديبلوماسيًا من السلطان السعدي.

تجميعًا لهاتين السمتين «السفارية والحجاجية» تحوّلت رحلة أفوقاي من رحلة فردية ذاتية، إلى رحلة هُوية أمّة تُدافع عن حقها في العيش بسلام وتسامح رغم الاختلاف الديني. إن احتجاج الرّحالة كان حجاجيا بالدرجة الأولى، فهو يناظر رجال الدين في فرنسا وهولندا، ويحاول إقناعهم بصحة العقيدة الإسلامية التي حافظ عليها الشعب الأندلسي فتعرّض للاضطهاد نتيجة لحريته الدينية[٤٠].

تتنوع المناظرات التي قام بها الرّحالة في رحلته، وكانت تلك المناظرات تأتي في سياق ذكر أحوال مسلمي الأندلس، ولماذا تم اضطهادهم، وقد توزعت مواضيع تلك المناظرات على ثلاث اتجاهات:

- مناظرات عقدية حول التوحيد ومسألة التثليث المسيحي
- مناظرات السلوك والمعاملات والزواج
- مناظرات حول الطهارة

وقد اختلفت في الطول والقِصر، فتارة يورد الرحالة المناظرة كاملة، وتارة يورد جزءًا منها، وتارة ثالثة، يذكرها على وجه الإجمال، وهذا ضربٌ من التصرف الذاتي الذي يعلي من ذاتية الرّحالة، ويحدُّ من موضوعيته؛ غير أننا نلتمس العذر نقديا للرّحالة، ذلك أنه يصرّح في بعض المواضع بأن ذاكرته تداعت أمام السنين، فبين رحلته كفعل، ورحلته كخطاب، سنوات كثيرة. فالثابت أنه كتب رحلته بعد القيام بها بسنين، ما يجعل النسيان ينسرب إلى الذاكرة ويحدُّ من قوتها. ومن هنا تصبح تعلّة الذاتية التي حوكم بها الرّحالة، قابلة للتفسير بالنسيان في حالة النصوص الرحلية التي تُكتب بعد القيام بالرّحلة، هذا إضافة إلى أن النسيان قد يعتري الرّحّالة والمؤرخ على حدّ سواء.

إن مناظرات أفوقاي، من حيث موضوعاتُها تعدُّ صورة من صور التفاعل الحضاري بالآخر الغربي «الفرنسي والهولندي» حسب سياق الرحلة، ومن خلال هذا التفاعل الحضاري، نستطيع أن نلمسَ حدّة الاحتجاج بالحجاج؛ فحيثما «يوجد التفاعل البيني يوجد التدافع الحجاجي»[٤١]؛ فجنوح الرّحّالة إلى تدوين مناظراته ليس فعلاً عبثيًا، أو استجابة لملء الفجوات

النصية، بل هو تلبية لنداء ذاتي داخلي يسكنه منذ بطش محاكم التفتيش به وبغيره، تلك المحاكم التي «تسائل الموريسكيين عن عقيدتهم الإسلامية، وتتهمهم بالكفر لأنهم لم يتنصروا على وجه الحقيقة»(٤٢). بهذا نستطيع أن نفسّر تنوع مواضيع تلك المناظرات، ونستطيع أن نفسّر من خلالها ظروف التعايش والتماس الديني والحضاري الذي كان في أوجه وقتئذ؛ فموضوعات تلك المناظرات تتصل بما خلفته محاكم التفتيش من ندوب نفسية وجراحات حضارية لم تندمل إلى الآن، وكأن رحلته الحجاجية تتمة للأوضاع المضطربة بين الإسبان والمسلمين بعد سقوط غرناطة، فحاول الرّحالة أفوقاي الإجابة عن تلك الأسئلة العقدية المعلقة، ولو بعد فراره الأندلس.

٣/٢-مناظرة الدفاع عن أخلاق المسلمين

يسوق أفوقاي أولى مناظراته عندما وصل إلى فرنسا مع تاجر فرنسي كان يعرفه في مراكش، فيقول: «وجاء إلينا تاجر كنت عرفته في مراكش اسمه فرطن ولطول مكثه في بلاد المسلمين كان يعرف العربية غايةً، وبدأ يتكلم في دين المسلمين، ويشكر دينهُ. وقال: المسلمون في دينهم مُباحٌ الزنا والسرقة. قلتُ: هذا باطل. قال: بل صحيح، لأني سمعت علماءكم يقولون إن بعضًا سأل نبيّكم، قال: المومن يزني؟ قال له: يزني. قال: والمؤمن يسرق؟ قال: يسرق. قال أيضًا: والمؤمن يكذب؟ قال له: المؤمن ما يكذب. قلت له: المؤمن الذي ما يكذب فلا يسرق ولا يزني، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق ما يساوي ربع دينار تُقطعُ يدهُ شرعًا، وإذا زنا المحصن يرجمُ إلى أن يموت»(٤٣).

يمثل هذا المقطع القصير نموذجًا حيًّا لبنية حجاجية تعتمل في نسق الرحلة؛ ذلك أن الرّحّالة عدلَ فورا من الحديث عن وصوله إلى مرسى «هبردي غرسي» إلى نقل وقائع أو مناظرة له. ليس الغرض من إيراد هذا النموذج من المناظرة الحديث عن أحكام الزنا والكذب والسرقة في الإسلام، فقد أُسيلَ بشأنها مدادٌ كثير في الكتابات التخصصية. وإنما الغرض هو الوقوف على القوة الحجاجية التي يستندُ إليها الرّحّالة؛ فقد استطاع من خلال اعتماده على قاعدة القياس، أن يكشف المغالطة الحجاجية التي وقع فيها التاجر الفرنسي، فإذا كان هذا الأخير يمرر مغالطة حجاجية(٤٤) قوامها الاستشهاد بجزء من حديث نبوي دون استحضار سياقاته الكلية، للإيقاع بالمتلقي «أفوقاي» فإن هذا الأخير يكشف تلك المغالطة عبر إخضاع قول التاجر الفرنسي إلى قاعدة القياس المُقدّماتي:

- مقدمة١: المؤمن لا يكذب
- المقدمة٢: السارق يُعاقب بقطع يده
- المقدمة٣: الزاني المحصن يُعاقب بالرجم

= النتيجة: المؤمن الذي لا يكذب لا يسرق ولا يزني.

بهذه المقدمات يكشف أفوقاي تلك المغالطة، ويجعل الكذب والسرقة والزنا في خندقٍ واحد، فنراه يستنكر بسؤاله على خصمه «كيف تقول هذا وعندنا أن من يسرق ربع دينار تقطعُ يدهُ، وإذا زنا المُحصن يُرجم»، فـ «بُهتَ التاجر ولم يعرف ما يقوله».

٤/٢-مناظرة حول مسألة الزيادة والنقصان في الأديان

يورد الرّحالة أفوقاي مناظرة طويلة(٤٥) جمعته بقاضي الأندلس في فرنسا، وذلك بعد مغادرة باريس إلى بوردو، وكان موضوع هذه المناظرة حول الزيادة والنقصان في الأديان. حاول فيها أفوقاي الانتصار لكمال الدين الإسلامي وتنزيهه عن الزيادة أو النقصان، في مقابل إلصاق الزيادة والنقصان بالأديان الأخرى: «قلت: دينكم مفتوح للزيادة والنقصان، لأن كلّ بابا له أمر عندكم ليزيد وينقص ما يظهر له في الدين»(٤٦) . ويمضي أفوقاي في الدفاع عن وجهة نظره بسرد الحجج المناسبة لدفوعاته، فيذكر ما زاده المتعاقبون على منصب البابا في الكنيسة، ويشير إلى مصدر معرفته بذلك فيقول: «قال كرتش المنجّم في كتابه، وأيضًا سمران الإشبيلي، وقد عرفته في مدينة إشبيلية اسمًا وعينًا، وأيضًا جبِش، ذكر كلُّ واحد في كتابه ما زادهُ وما نقص كلُّ واحد من البّابس «يقصد البابا»(٤٧).

بغض النظر عن موضوع المناظرة، وما يمكن أن يقال عنه، يظهر أن أفوقاي في مناظراته ومجادلاته كان قويَّ الحجة، واسع الاطلاع على الكتاب المقدّس باللغتين العربية والأعجمية، إضافة إلى اطلاعه على ما كتب في

الأديان في إشبيلية. ونرجح أن ثقافته حول الأديان استقاها وهو «صغير من المدارس الخاصة بدروس الكنيسة التي كانت تُفرض على المسلمين الأندلسيين من أجل تثبيت الإيمان المسيحي في نفوسهم»(٤٨). وفي بعض المواضع كان يعود إلى الكتاب المقدّس ليبحث عن الحجج التي تدعم وتثبت آراء الإسلام، كما يتبيّن من قوله: «رأيتُ أنه لا يكفيني في الردّ عليهم من كتبنا، إللا إذا كان من كتبهم فهو أقوى وأبلغ»(٤٩). يتضح أن أفوقاي يتكئ في حجاجه على استراتيجية حجاجية ثنائية، تنهل من كتب الإسلام ومن كتب المسيحية والنصرانية ويُسخرها لتقوية موقفه وآرائه.

إنّ الغرضَ من إدراج هذين النموذجين من مناظرات أفوقاي لغيره من النصارى والمسيحيين، يتجلى في التمثيل للحضور الحجاجي في الطاب الرحلي الموريسكي؛ فظروف الصراع الديني كانت عاملاً مُباشرًا لطفوح الحجاج على سطح الرحلة، خاصةً أن الرّحّالة ذهب في مهمة سفارية الهدف منها هو الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة في الأندلس، وحيثما وُجدَ الدفاع وُجدَ الحجاج.

إنّ الحجاج الذي غطّى مساحة كبيرة من نص رحلة أفوقاي، لم يكن غاية في ذاته، وإنما نتيجة لأسباب الرحلة من جهة أولى، وامتدادًا للحجاج السائد بين المسلمين الأقلية والنصارى الأغلبية في الأندلس، من جهة ثانية. فالرحالة عندما وصلَ إلى لهاي بهولندا اجتمع بقاضيها، فسأله القاضي: «ما السبب الذي ظهر لك حمل سلطان إسبانية على إخراج الأندلس من بلاده؟ قلت: اعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام، ويحكمون فيهم، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم، ولا كان يحمل منهم أحدا إلى الحروب، وهي التي تفني كثيرًا من الناس، وكان أيضًا يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم (...) وهذا الذي ظهر لي حمله على إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون... »(٥٠). انسجاما مع هذا الوضع كان يناظر الرّحالة في مواضيع ذات صلة بمعاناة مسلمي الأندلس.

خاتِمَةٌ

ما يسعنا في ختام هذه الدراسة، هو التأكيد أن أفوقاي في مختصر رحلته، استطاع إلى حد بعيد تمثيل حالة التشظي الديني التي كانت تعيشها إسبانية بتضييقها على الحريات الدينية، وعلى المسلمين بوجه خاص، تمثيلا تأريخيًا وحجاجيًا، بل إنه عاش تلك الحالة التاريخية، الشيء الذي دفعه للترافع على ضعفاء الأندلس، ومحاولة خلق توازن ديني عبر آلية الحجاج، فإنه وإن كان في حالة ضعف وانحطاط، فإنه لم ينسَ أهمية الدفاع على حقوقه وحقوق غيره على مستوى حرية الاعتقاد والتدين والعيش في سلام، وهو يعلم علم اليقين أن ما عقيدته الإسلامية أنتجت حضارة أندلسية وسعت كل شيء، وانصهرت في بوتقتها الأديان والثقافات واللغات والأعراق والأجناس.

الإحالات المرجعية:

(١) يُراجع في هذا السياق: أنطونيو دومينيغيث، **تاريخ الموريسكيين، حياة ومأساة أقلية**، ترجمة محمد ينيانة، منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٣٤ه-٢٠١٣.

(2) Francisco Piferrer: Nobiliario de los reinos y senarios de Espana. Tvi Madrid. 1860. p 138.

(٣) **مصطلح «موريسكي»** أطلقه الإسبان على مسلمي الأندلس الذين بقوا فيها بعد السقوط، وكان يعني معنى قدحيا، ولكنه شاع استعمالهُ في الدراسات الأدبية التي تعنى بتاريخ تلك الحقبة، وشاع استعماله أيها في الدراسات التاريخية. ونحن إذْ نستعمله هنا، لا نقصد به التنقيص منهم، وإنما نستعمله تماشيًا تداول المصطلح وشيوعه.

(٤) عندما نقول بأنه آخر موريسكي يؤلف بالعربية، فإننا لا نقطع بهذا الرأي نهائيًا، وإنما نقصد آخر موريسكي يصلنا نصه مكتوبا بالعربية، مع ترجيحنا وجود مخطوطات موريسكية بالعربية مفقودة، أو مُحتجنة في المكتبات الخاصة. وهذا معروف، خاصة في مكتبات عوائل مدينة فاس، ففي سنة ٢٠١٩ اكتشفت مكتبة إثر انهيار منزل قديم يعود بناؤه إلى القرن ١٦ الميلادي، وقد عُثر فيها على مخطوطات نادرة، في مجملها مخطوطات أندلسية وموريسكية.

(٥) انظر ترجمته في: **رحلة أفوقاي الأندلسي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب**، تحقيق محمد رزوق، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٤، ص ١١-١٢.

(٦) هما: **ناصر الدين على القوم الكافرين**، تحقيق وترجمة شورد فان وقاسم السامرائي وخيرار دفيخرز، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، د ط، د تاريخ. **رحلة أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب**، تحقيق وتقديم محمد رزوق، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٤.

(٧) أفوقاي، **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٢٠.

(٨) أفوقاي، **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٢٢.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٠) التي صدّرها كاتبُها حسن أوريد بتسويغ مُقدّماتي، يقول فيه: «استقيتُ مادة هذه الرواية من سيرة أحمد شهاب الدين أفوقاي الذي خلف لنا شهادة عن مساره الفكري في كتابه ناصر الدين، يوم أن فرَّ من الاندلس خوفًا على حياته من فتنة محاكم التفتيش، وانتظم بعد هجرته إلى المغرب في بلاط السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي، ورحلَ في مهمة ديبلوماسية إلى فرنسا ثم هولندا بأمر من السلطان زيدان الذي خلف أباه أحمد المنصور» الموريسكي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط١، ٢٠١١، ص ٠٧.

(١١) أفوقاي، **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٢٠.

(١٢) أفوقاي، المصدر السابق، ص ١٠٩

(١٣) يقصد كتاب الشريف الإدريسي المسمى: **المشتاق في اختراق الآفاق**، وهو من أوائل الكتب العربية في علم الجغرافيا، وإليه تُنسب أول خريطة للعالم

(١٤) لفظ يُطلق على القساوسة القائمين بأمر محاكم التفتيش، والذين كانوا يعذّبون المسلمين ويقومون بحرقهم، وقد تضمنت وثائق الموريسكي محمد ميغيل ديمولينا شهادات بالعشرات على نماذج حرق المسلمين.

(١٥) يستعمل المؤلف كثيرًا لفظ «الأندلس» كناية على أهل الأندلس.

(١٦) أفوقاي، **مختصر رحلة الشهاب**، مصدر سابق، ص ٣٤.

(١٧) نلفت ذهن القارئ الكريم، أنّ ما وصلنا من رحلة أفوقاي كما سبقت الإشارة هو مختصر رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب». أما نص الرحلة كاملة فلا يزال مفقودًا، فلو وصلتنا الرحلة كاملة حتما كنا سنظفر بحقائق ومعطيات تاريخية جديدة تعيد بناء تصورنا لتاريخ الأقلية المسلمة في الأندلس بعد سقوطها، وقد أخبرنا في مختصره عما ذكره فيها فقال: «ثم دكرت كيف كان حال المسلمين بين النصارى بعد أن أدخلوهم جميعا كرها منهم في دينهم، وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهرًا، ودين المسلمين في خفاء من الناس. وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار حكمَ القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدتُ حالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها...» ص ٢٠-٢١.

(١٨) عبد الله العروي، **في مفهوم المؤرّخ**، سلسلة محاضرات جامعية، كلية الآداب ابن مسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩، ص ١٦.

(١٩) في ٩ أبريل ١٦٠٩م أصدر الملك فيلب الثالث قرارًا يقضي بطرد جميع المسلمين الموريسكيين من إسبانيا، وقد تم تنفيذ القرار تدريجيًا حسب المدن والمواقع التي يسكنها الموريسكيون، انظر: أونطونيو دومينيغيث وبرنار فانسون، **تاريخ الموريسكيين**، ترجمة محمد، مرجع سابق، ص ٢٦٧ وما بعدها.

(٢٠) نقلاً عن ماثيو كار، **الدين والدم، إبادة شعب الأندلس**، ترجمة مصطفى قاسم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٣، ص ٤٤.

(٢١) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢٢) أنطونيو هورتز، **تاريخ مسلمي الأندلس، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية**، ترجمة عبد العالي صالح، دار الإشراق، الدوحة، دون طبعة، ١٩٨٨م، ص ١٩٦.

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٤٩-١٧٧.

(٢٤) زمّموا بمعنى قيّدوا ودوّنوا، وسيأتي الكلام على هذه الكلمة في الفصل الخاص بتأريخ اللغة.

(٢٥) أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب، ص ١١٦.

(٢٦) نقلاً عن: خالد أمين، **المجتمع الإسباني في القرنين ١٦-١٧**، من خلال وثائق إسبانية، سلسلة أبحاث تاريخية، كتاب الجيب، العدد ٢٢، ٢٠١٥، الصفحة ٣٦.

(27) Fer,in Mayorga. Los Moriscos De Hornachos y La inguisicion

ضمن كتاب: **الموريسكيون، أربعة قرون بعد التهجير**، تنسيق رحمة الحضري، مركز دراسات الأندلس، الرباط، ط١، ٢٠١٥، ص ٥٣.

(٢٨) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ١١٧-١١٨.

(٢٩) هورتزن مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٣٠) مرثيديس غارثيا أرينال، **المهاجرون الأندلسيون**، ترجمة فكري محمد عبد السميع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٣، ٢٠١١، ص٦٧.

(٣١) محمد حجي، "**العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر**"، مجلة التاريخية المغربية، عدد ٢٩-٣٠، يوليوز ١٩٨٣، ص ١٥١-١٦٠.

(٣٢) يقصد رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب المفقودة، وليس مختصرها الذي بين أيدينا.

(٣٣) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ١١٥-١١٦.

(٣٤) أنطونيو هورتز، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٣٥) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ١١٩.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣٧) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٣٨) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٦٧.

(٣٩) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٤٧-٤٨.

(٤٠) ماثيو كار، **الدين والدم**، مرجع سابق، ص ١٥٧-١٦٩.

(٤١) يونس حبّاش، **الحجاج عند طه عبد الرحمن**، مركز معارف للنشر والتوزيع، المغرب، ط١، ٢٠١٨، ص١١٣.

(٤٢) عبد الله حمادي، **الموريسكيون ومحاكم التفتيش**، الدار التونسية للنشر، تونس، ط٣، ١٩٩٨، ص ٤٠.

(٤٣) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٤٩.

(٤٤) الحجاج المغالطي نوع من الحجاج يُحاول فيه المُحاجِج إخفاء مقاصدهِ الحقيقية، ويسعى إلى الإيقاع القصدي بالمتلقي-المُحاجَج حتى يقبل دعواه المعروضة، فهذا النوع من الحجاج يتكئ على الاستدلال الذي يبدو كأنه مقنع سيكولوجيا لا منطقيا. لمزيد من التفصيل، انظر: محمد أسيداه، **اللسانيات والحجاج، الحجاج المغالط نحو مقاربة لسانية وظيفية**، عالم الكتب، الأردن، ط١، ٢٠١٠، الصفحة ٢٧٢.

(٤٥) **مختصر رحلة الشهاب**، الصفحات ٥٨-٥٩-٦٠.

(٤٦) المصدر السابق، ص ٥٩.

(٤٧) المصدر السابق، ص ٥٩.

(٤٨) عبد الوهاب بن منصور، **أحمد بن قاسم أفوقاي الحجري آخر موريسكي يؤلف بالعربية**، مرجع سابق، ص ١٩.

(٤٩) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ٨٨.

(٥٠) **مختصر رحلة الشهاب**، ص ١١٣.